

المحاضرة الثالثة من السداسي الثاني

التطبيقات الميدانية في المواقع الأثرية

يحسن بنا القول أن الدراسة الميدانية في علم الآثار لموضوع الزراعة في منطقة ما هو في الحقيقة له قيمة علمية أكثر مما لو قمنا بدراسة منشآت عمرانية أو مخلفات حضارية أخرى لملك من الملوك أو إمبراطور من الأباطرة المشهورين. فما هو مرجو على وجه التحقيق من دراسة تلك العماثر بما يرتبط بها من رسوم ومخططات أو ما تحوزه من كنوز ثمينة إذا لم يكن الباحث على دراية تامة بالتنظيم السياسي، والمعتقدات الغالبة¹، وطريقة العيش في وسط ذلك المجتمع الذي كان سائدا في عصر هذا الملك؟

فلا مناص من القول أنه من الصعوبة بمكان التعرف على حضارة بائدة أو موقع أثري ما لم تكن هناك معرفة مسبقة بالوسط الجغرافي الذي نمت فيه هذه الحضارة أو تلك وتطورت فيه بشكل أو بآخر. وما هي الفائدة التي نالتها هذه الحضارة في تلك الرقعة الجغرافية وكيف أثر هذا الوسط على السكان على اعتبار أن الإنسان ابن بيئته يتأثر بها حسبما ذهب إليه العلامة ابن خلدون في المقدمة².

ويذكر أنه في ستينيات القرن الماضي أصبح علم الآثار يطلق عليه علم الآثار الحديث لا سيما في البلاد الأنجلو سكسونية وذلك اعتمادا على الفكرة القائلة لا يمكن دراسة الموقع الأثري منفردا بذاته دون اللجوء إلى فهم الوسط الجغرافي القريب والبعيد المحيط به. علاوة على حتمية دراسته في حيز المنطقة الواسعة التي يوجد بها. لهذا تتطلب دراسة حضارة معينة التعرف على المنطقة الجغرافية التي وجدت بها وتوسعت وتطورت في فلكها. فيستحيل

¹ _ رودريغو مارتين غالان: المرجع السابق، ص، 31.

² _ عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، تحقيق خالد العطار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2004، ص، 21-56.

مثلا القيام بدراسة حضارات ما بين النهرين دون التعرف على النظام النهري وأثره على ازدهار ساكنة تلك المنطقة.

كما لا يمكن دراسة مصر الفرعونية دون معرفة نظام فيضان نهر النيل، فلقد أشار المؤرخون أنه بمعرفة تلك التفاصيل المرتبطة بالفيضان نستطيع دون مشقة فهم مقولة هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد التي بقيت إلى اليوم المعاش تتردد كلما حضر الحديث عن مكانة مصر عندما قال: " مصر هبة النيل ".

ولا ريب أن هذا المنطق الذي أشرنا إليه ينطبق أيضا على تدمير وآثارها المتبقية في قلب البادية السورية وعلى مقربة من واحة مخضرة وارفة الظلال؛ الأمر الذي ساعد على قيام مدنية مزدهرة بلغت شأوا بعيدا في الميدان الحضاري فكانت معبرا للقوافل التي كانت تضرب إليها أكباد الإبل كما ورد في الأمثال العربية القديمة. وكان لها دور لا يستهان به في الحفاظ على النظام في المنطقة نتيجة قيامها بدور رادع لوقف هجمات أهل البوادي المقيمة حولها أو قريبا منها وكف أذاها ومنعها من العبور فكانت بمثابة الشرطي في المنطقة مما يعبر صراحة عن مكانتها الكبيرة التي تمتعت بها في العصور الخالية.

ويذكر رودريغو مارتين غالان أن من بين النصائح الهادفة التي تقدم للباحثين في علم الآثار قبل قيامهم بزيارة الموقع الأثري والشروع في البحث فيه ودراسته دراسة شاملة، فإنه قمين بهم أن يبدأ بزيارة أبعد نقطة في الموقع وذلك قصد ربطه مع كل ما يحيط به، ثم بعد ذلك ينتقل إلى وسط الموقع للوقوف عن كثب على الوسط المحيط بالموقع الأثري. ولا يتأتى حسب هذا الباحث أيضا أن يدرس علم الآثار الحديث فقط على أنه دراسة لفن العمارة، وتخطيط المدن، أو الثقافة العادية فحسب³. فالزراعة، والري، والكثافة السكانية وانتشارها له من الأهمية بمكان ما يتمتع به على سبيل الذكر النحت في بلاد سومر في الألفية الرابعة، أو ما للمساجد الباكورة مثل مسجد النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، والمسجد الأموي

³ _ رودريغو مارتين غالان، المرجع السابق، ص، 33.

بدمشق. فلا يمكن وضع فكرة متقاربة لمظهر الإنتاج الفني لشعب ما بمعزل عن معرفة متكاملة عن حياة الشعوب والمجتمعات التي شكلت هذا الشعب أو تلك الحضارة.

مصادر دراسة البيئة الجغرافية الموثقة للموقع الأثري

لما يقوم الأثري بقراءة الوسط الجغرافي الذي يوجد فيه الموقع الأثري مهما كانت مساحته شاسعة أو دون ذلك فحينها يستعلم من الوثائق الجغرافية، والجيولوجية، والمناخية التي جمعها. حتى يتمكن من وضع قاعدة بيانات ليبدأ من خلالها عن وضع الحلول لجميع العراقيل التي قد يتلقاها في بحثه؛ ولكي يتسنى له تحضير جيد لبحثه يلتزم بتنظيم المعلومات التي جمعها من أمهات الكتب المتاحة تبعاً لكل موضوع من المواضيع التي سيتم البحث فيها وذلك على النحو التالي:

- 1_ الاستفادة من المصادر القديمة ما من شأنه أن يخبرنا عن الوضعية التي كان عليها الوسط الجغرافي في الفترة المعنية بالدراسة، وملاحظة التغيرات التي حدثت هنالك عبر تقلبات الأيام والليالي.
- 2_ تقصي المعلومات حول النشاط الاقتصادي، مثل المعلومات التي تخبرنا عن الطريقة التي استفاد منها شعب من الشعوب من ثروة طبيعية معينة. مثل الاستفادة الفينيقيين من تجارة الأرجوان لحذقهم استخلاص دم الموركس الحيوان الرخوي الغني باللون الأرجواني الذي وظفوه في صباغة الملابس فاشتهروا بذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ووسعوا تجارتهم فيه إلى غاية وصولهم الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في تلك الفترة السحيقة من الزمن.
- 3_ الاعتماد على ما خلفه الكتاب القدماء عن المنطقة محل الدرس، أو القرى التي عاشت فيها، وكذا المناطق، والقرى المجاورة⁴.
- 4_ الاستفادة من الخرائط الجيولوجية لمعرفة ما إذا كانت المناطق محل الدرس _ عبر دراسة الثقافة المادية _ تحتوي على أماكن استخراج المواد الخام التي لا يستغنى

⁴ _ رودريغو مارتين غالان: المرجع السابق، ص، 34.

عنها بأية حال لصناعة الأدوات والوسائل المختلفة، أو ربما استعان السكان المحليون استوردوا تلك المواد من أماكن قريبة ثم عملوا على تحويلها وتصديرها منتجات نصف مصنعة أو مصنعة بعد ذلك.

عندئذ نستطيع معرفة المنتجات المحلية وطبيعة التبادلات التجارية التي كانت تقوم على التزود بالمواد الضرورية لاستخدام سكان المنطقة المدروسة. ومن الأمثلة التي نسوقها هنا للدلالة على ذلك رخام منطقة فلفة بسكيدة الذي كان يصدر مادة خام أو نصف مصنعة في شكل تماثيل الآلهة سترن إلى إيطاليا ثم يعاد إلى الجزائر جاهزا بالكامل وهذا في العصر الروماني. وهذا كله يمكننا من معرفة طبيعة النشاط الاقتصادي والتجاري السائد في تلك المرحلة التاريخية المهمة.

إن الكتابات الجغرافية والأثرية المتاحة التي تتكلم عن جيولوجية المنطقة وتركيبتها ستساهم دون شك في معرفة نوع المعادن وكثافتها الموجودة والقابلة للاستخدام والاستغلال الصناعي والحرفي؛ والتأكد من أنها استخدمت فعلا في ما مضى أم العكس من ذلك. من مثل التعرف على أنواع العجائن الطينية الصناعية التي استعملت في إعداد الفخار والخزف، والأماكن التي استخرج منها الصلصال، والطينة البيضاء. وعند تنظيم ثم استقراء المعلومات الموثقة السابقة جميعا، يمكن آنذاك للأثري الخروج إلى العمل في الميدان وهو مسلح بالمعرفة الضرورية للقيام بالتطبيقات الميدانية المتخصصة في الموقع ويشعر في عملية المسح الأثري مباشرة؛ لكي يمدنا بالمعطيات الدقيقة الخاصة بالوسط الجغرافي والمواد الطبيعية الموجودة فيه؛ وسنتمكن بعد ذلك من معرفة كيف يساعد المسح الأثري في إعداد دراسة شاملة حول هذا الوسط الجغرافي. فالصلة إذا بين المسح الأثري والوسط الجغرافي تكتسي أهمية خاصة، فالاستنتاجات المستمدة حول الصورة الجغرافية للمنطقة، يجب أن يكون لها علاقة وطيدة مع تحديد مواضع المواقع الأثرية التي ينبغي أن توضع بدورها ضمن إطارها الجغرافي ككل. ولا ريب أن هناك تكامل بين الدراسة الجغرافية للمنطقة والموقع الجغرافي حتى تكون النتائج المتوصل إليها في نهاية العمل ذات قيمة تاريخية وحضارية. ولا بد من الإشارة إلى أهمية المعلومات الشفوية لإكمال الرصيد المعرفي التاريخي الموثق، التي يمكن الحصول عليها من سكان المنطقة

القريبة من الموقع أو الموجودة ضمنه خاصة أولئك يشغلون الموقع بتجمعات محافظة على العادات والتقاليد بصورة أكثر تثبتاً، ومعرفة اتصالهم بالبيئة التي يشغلونها. مع مراعاة الغث من السمين لتلك المعلومات الشفوية، واختيار ما هو أنسب للدراسة وإجراء مقارنة ومقابلة النصوص التي يمكن أن تقدم معلومات أكثر دقة بشأن ما يشغل بال الأثريين المقبلين على العمل الميداني الصرف. كما يمكن الاستفادة من كبار السن في المنطقة لمعرفة طرق المواصلات القديمة والدروب، والمسالك وربما حتى الممرات الخاصة بالراجلين التي لم تذكر في المصادر الجغرافية والتاريخية. وكذا الجسور والمعابر التي شيدت على الأودية والأنهار والمسطحات المائية؛ فضلا عن منابع المياه والآبار المهجورة. مثلا السدود والعيون، وقناطر المياه التي استغلها الرومان في شمال إفريقيا خلال احتلالهم للمنطقة إذ وجدت منها في بسكرة وغيرها.

دراسة المكان

في البداية كما هو معلوم، يكون انكباب الباحث أكثر على العمل في المكتبة من خلال جمع المعلومات التي يحتاجها في عمله الميداني، من خلال رصدها وجردها واقتباسها من مظانها الأكيدة في الكتب المصدرية والخرائط الجغرافية، والطبوغرافية، والجيولوجية. حيث يتعصى على الأثريين فهم العلاقات القائمة بين مجموع المستوطنات البشرية وبين وسطها الجغرافي مالم يتم إدراك المفاهيم التي تتعلق بالمكان وهي المكان الكبير، والمكان الوسط، والمكان الصغير⁵. سنحاول التطرق لهم جميعا فيما يلي:

1_ المكان الكبير

أدرك الأثريون أنهم ملزمون بإنجاز عمل تحليلي للموقع الأثري على ثلاثة مستويات يركز الأول على المكان الكبير أي الإقليم الواسع الذي يتوضع فيه الموقع الأثري وما هي الدوافع الحقيقية على وجوده هنالك فحسب. وما هي الرابطة بين الموقع

⁵ _ Toure gninin Aicha desline : **initiation à l'histoire et à l'archéologie**, université Abidjan, 2018-2019., p,8.

والمنطقة وما هو الشيء الذي منحته المنطقة للموقع وما هي الاستفادة التي حققها من وجوده في تلك المنطقة. وهل هناك علاقات وروابط بين الموقع الأثري وباقي التجمعات البشرية المتواجدة في المنطقة محل الدرس. فعندئذ يمكننا معرفة بصورة أكثر وضوحا الوظيفة التي كان يؤديها الموقع الأثري من خلال وجوده في تلك المنطقة محل الدراسة.

2_ المكان الوسط

يظهر في المنطقة الأكثر قربا من الموقع الأثري المدروس، إذ تساعد دراسة هذه المنطقة على معرفة الثروات والمواد الطبيعية الخام القريبة من الموقع. والقابلة للاستخدام من قبل سكان ذلك الموقع. في حين وجود مورد طبيعي بعيدا عن الموقع المدروس إذ لا يستحق بذل مجهود كبير قصد الحصول عليه فهذا يعني بصراحة أن هذا المورد الطبيعي لم يكن مستغلا إلا إذا كان ذا قيمة هامة؛ يستحق معه بذل مجهودات كبيرة تتطلب نقله من مكان المورد البعيد إلى الموقع الأثري. وهذا ما يجعل عملية استغلاله في حد ذاتها جديرة بالاهتمام والرعاية من قبل الباحثين الأثريين. ويبدو أن أي مجموعة بشرية تطور عملا يوميا تكون نتيجته الحصول على الغذاء؛ فإن هذه المجموعة لا تجعل مكان العمل هذا أبعد من 30 كلم عن المكان الذي تسكنه⁶؛ لأن الإنسان على العموم يميل إلى الاستقرار في الأماكن التي يمكن أن يستمد منها حاجته وكل ما هو ضروري لحياته اليومية. ومن هنا نفهم قول ابن خلدون في المقدمة عندما أشار إلى شروط بناء المدن وتهيئة الإقامة للسكان لكي تكون الإقامة مرتاحة، بحيث ينبغي أن تتوفر فيها أو بالقرب منها جملة من الشروط الضرورية وهي الميرة، والمحطب القريب للأعمال المنزلية، والأرض الطيبة الصالحة للزراعة، والمياه العذبة النميرة، والهواء النقي العليل الخالي من الأوبئة والأمراض الفتاكة⁷.

3_ المكان الصغير

⁶ _ رودريغو مارتين غالان: المرجع السابق، ص، 37.

⁷ _ ابن خلدون: المصدر السابق، ص، 330-331.

وهو دون عناء الموقع الأثري نفسه، وتقع على عاتق الجغرافيا والتحليل الأرضي مسؤولية تحليل كلا المكانين المكان الكبير من جهة والمكان الوسط من جهة ثانية. فمن خلال النصوص الجغرافية يمكننا أن نطرح جملة من الأسئلة حول الدوافع التي جعلت الموقع الأثري يوجد في منطقة دون سواها، وماهي العوامل البشرية والطبيعية التي أدت إلى وجود الموقع هنالك.

دراسة الموارد الطبيعية

دراسة الموارد الطبيعية الموجودة في المنطقة يمكن أن تشكل في حد ذاتها مشروعاً للبحث الأثري بغية التعرف على ما يمكن أن يقدمه إقليم ما لمجموعة بشرية استوطنته عبر العصور. والحذر مطلوب في مثل هذه الأمور، لأن وجود مورد طبيعي في منطقة ما لا يدل على أن المجتمعات البشرية القديمة قادرة على استغلاله وربما يكون ذلك صعب للغاية. الشيء الذي جعل هذه المجتمعات تتخلى عن استخدام ذلك المورد؛ وتجدر الإشارة هنا إلى أنه من الضروري إعداد دراسة تاريخية حول استغلال مورد طبيعي والتعرف على الوسائل والطرق التي كانت تستعمل من أجل الانتفاع بالمورد الطبيعي. وفي جميع الأحوال يتعين على الأثريين دراسة وتحليل كل ما من شأنه أن يوضح كيف ولماذا كانت تستعمل مقالع الحجارة والرخام وحتى المواد المعدنية من نحاس، وبرونز، وما إليها. فمثلاً لمعرفة انتشار الرخام والمرمر في مقالع كيريرا الإيطالية وجب معرفة الأساليب الباكرا المستعملة في استخراج هذه الموارد التي كانت تصنع منها تماثيل الآلهة التي كانت تعبد من قبل الرومان، وكان يزين بها المعابد والساحات العمومية الفوروم في المدن العتيقة في شمال إفريقيا مثل تموقادي، وكويكول، وصلداي، ويول وغيرها⁸.

وعلاوة عن ذلك يجدر بالباحثين أيضاً التركيز على معرفة الشبكة الطرقية التي كانت تربط مواطن وجود الموارد الطبيعية وامتدادها على الخريطة الجغرافية بأماكن الصناعة التحويلية

1_ محمد العربي عقون: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص ص، 123-128.

والتجارة، مع المسالك البحرية والنهرية التي تسهل عملية الملاحة ونقل البضائع نصف المصنعة والمصنعة.

الاستفادة من المعلومات الموثقة

ينبغي على الأثرين ترتيب المعلومات التي حصلوا عليها، لاسيما تلك المتعلقة بالوسط الطبيعي الخاص بالموقع الأثري؛ بكيفية تسمح بدمجها في مجموعها في دراسة شاملة حول الموقع المدروس. ومن المناسب أن يرفق الباحث إلى مجموع الوثائق كافة الخرائط المتوفرة عن الموقع؛ ولا بأس أن يضع الباحثون خرائط جديدة تبين عليها توزع المواقع الأثرية وعلاقتها مع الموارد الطبيعية وعليها كذلك التضاريس وطرق المواصلات.

كما يمكن إنشاء مجموعة ملفات تحتوي العديد من المعلومات المهمة يضاف لها المتغيرات الطارئة التي يعثر عليها في الميدان.

وهذه الملفات تحوي معلومات قابلة للتغيير ومرتبطة بالملاحظات التي تشاهد خلال العمل التطبيقي داخل الموقع الأثري ويمكن تقسيمها على النحو التالي:

__ معلومات حول الجيومورفولوجيا: (géomorphologie) دراسة الأرض وتضاريسها.

__ معلومات حول البترولولوجيا: (pétrologie) بنية الصخور والمعادن اعتمادا على التحاليل الفيزيائية والكيميائية.

__ معلومات حول الباليوكليماتولوجيا: (paléoclimatologie) إعادة تصور الحالة المناخية في العصور القديمة من خلال دراسة تقلبات الطقس، والحالة الجوية اعتمادا على دراسة السويات الأثرية التي ترجع لكل عصر من العصور القديمة مثلما فعل ستيفان غزال في الجزائر في فترة فجر التاريخ.

_ معلومات حول الباليوإيدافولوجيا: (paleoedafologie) دراسة الحالة التي كانت عليها الأراضي في الماضي، اعتمادا على السويات الأثرية التي ترجع إلى العصور القديمة.

إن هذه المعلومات تدفعنا إلى القول ودون تردد، إننا صرنا على أهبة تامة لمعرفة جميع الظروف والملابسات التي حدثت أثناءها التطورات التاريخية لمجتمع ما في مكان معين على مر الزمن. ويتحتم أيضا التفكير مليا حسب مقتضيات العمل التمهيدي القيام بالخطوات التي يجب أن نتبعها والتي ستشكل لاحقا الاستراتيجية التي ستمكننا من القيام بالبحث الأثري من بعد ذلك.

ومن المرجح أن نعرف الكثير حول الموقع الأثري، وإن نعرف بدرجة أقل المحيط المجاور مما ينبغي علينا التغلغل، والتعمق أكثر في مجال معرفة المحيط الخارجي. مثل القيام بمسح يشمل المواقع، بغية التعرف على الأماكن بعدما تعرفنا على المحيط. وقد تكون هذه المحطة الأخيرة في جمع وترتيب ومعاينة، وقراءة المادة التوثيقة بجميع حيثياتها التاريخية، والجغرافية، وامتدادها الأثري على أرض الميدان الذي بات قاب قوسين أو أدنى من مباشرة الاحتكاك باللقى الأثرية التي هي الهدف من هذا العمل كله الملقى على عاتق الباحثين الأثريين المقبلين على بدأ العمل التطبيقي الشائق والشاق في وقت واحد⁹.

⁹ _ رودريغو مارتين غالان: المرجع السابق، ص، 54.